الفصل الأول

النَّاس وطلب المستقبل

إن المتأمل في أحوال العباد يجدهم في الغالب الأكثر يتكلمون عن المستقبل ويحثون على المستقبل ، ويناشدون كل أحد بالمستقبل ، يحذرون من فوات المستقبل ، لكن أي مستقبل هذا الذي يهش النَّاس ويبشون له ويقومون ويقعدون من أجله ؟!! ، إنه مستقبل الدنيا !!! .

ويرددون عنه عدة أسئلة يلقونها على كثير من الشباب ، ولكن أكثرها ما يوجهونها إلى من توجه إلى الله وطلب ما عند الله ، ولأنه في نظرهم قد ضيع مستقبله .

فيقول أحدهم : ما هو مستقبلك الدراسي ؟ .

- ثم : ما هي الوظيفة التي ستشغلها ؟ .
- ثم : كم هو المرتب الذي ستتقاضاه ؟ .
- فهل ستكون مديرًا ؟ .
- أم ستكون دكتورًا ؟ .
- أم ستكون طيَّارًا ؟ .
- أم ستكون رئيسًا ؟ . . .

إلى غير ذلك من الأسئلة الخالية من السؤال عن المستقبل الحقيقي !!! .

فأكثر الناس يسألون لأنفسهم ولأبنائهم ولأقاربهم المستقبلات العاجلة مغترين بالدنيا ، كأنهم لها خُلِقوا ، ومن أجلها وُجِدوا ، وما فقهوا قول ربهم

تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ [الذاريات : ٥٦ – ٥٨] ، فتجدهم مغترين بالدنيا ، مشتغلين بتحصيلها .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ [١] :

وأعظم الناس غروراً من اغتر بالدنيا وعاجلها ، فآثرها على الآخرة ، ورضي بها من الآخرة ، حتى يقول بعض هؤلاء : الدنيا نقد والآخرة نسيئة ، والنقد أنفع من النسيئة .

- **ويقول بعضهم :** ذرة منقودة ولا درة مفقودة .
- **ويقول آخر منهم :** لذات الدنيا متيقنة ، ولذات الآخرة مشكوك فيها ، ولا أدع اليقين للشك !! .

وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله ! ، والبهائم العجم أعقل من هؤلاء فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تُقدم عليه ولو ضُرِبت ، وهؤلاء يُقدم أحدهم على عطبه وهو بين مُصدق ومُكذب .

فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء ، فهو من أعظم النَّاس حسرةً لأنه أقدم على علم ، وإن لم يؤمن بالله ورسوله ، فأبعد له .

وقول هذا القائل : « النقد خير من النسيئة » .

جوابه :

إنه إذا تساوى النقد والنسيئة ، فالنقد خير ، وإن تفاوتا وكانت النسيئة أكثر وأفضل ، فهي خير ، فكيف والدنيا كلها من أولها إلى آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة .

---

(١) في « الجواب الكافي » (ص ١٠٥ – ١١٣) .

كما في ـ مسند أحمد ـ والترمذي من حديث المستورد بن شداد قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما الدنيا في الآخرة إلا كما يُدخلُ أحدُكم إصبعَه في اليمِّ ، فلينظر بما يرجع** » (١) ، فإيثار هذا النقد على هذه النسيئة من أعظم الغَبن وأقبح الجهل .

وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة ؛ فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة ؟! .

فأيما أولى بالعاقل : إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة ، وحرمان الخير الدائم في الآخرة ، أم ترك شيء صغير حقير منقطع عن قرب ، ليأخذ ما لا قيمة له ولا حصوله ، ولا نهاية لعدده ولا غاية لأمده ؟ .

■ فأما قول الآخر : لا أترك متيقنًا لمشكوك فيه .

■ فيقال له : إما أن تكون على شك من وعد الله ووعيده وصدق رسله ، أو تكون على يقين من ذلك ؛ فإن كنت على يقين من ذلك ، فما تركت إلا ذره عاجلة منقطعة فانية عن قرب ، لأمر متيقن لا شك فيه ولا انقطاع له .

وإن كنت على شك فراجع آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته ومشيئته ووحدانيته ، وصدق رسله فيما أخبروا به عن الله ، وقم لله ناظرًا أو مناظرًا؛ حتى يتبين لك أن ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذي لا شك فيه ، وأن خالق هذا العالم ورب السماوات والأرض يتعالى ويتقدس ويتنزه عن خلاف ما أخبرت به رسله عنه ، ومن نسبه إلى غير ذلك ؛ فقد شتمه وكذبه وأنكر ربوبيته وملكه .

إذ من المحال الممتنع عن كل ذي فطرة سليمة ، أن يكون الملك الحق عاجزًا أو جاهلاً لا يعلم شيئًا ، أو لا يسمع ولا يُبصر ، ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ، ولا

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٨٥٨) .

يثيب ولا يُعاقب ، ولا يُعز من يشاء ولا يُذل من يشاء ، ولا يُرسل رسله إلى أطراف مملكته وجوانبها ، ولا يعتني بأحوال رعيته بل يتركهم سُدى ويخليهم هملا .

وهذا يقدح في ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به ، فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين إليه ؟ ، وإذا تأمل الإنسان حاله من مبدأ كونه نطفة إلى كماله واستوائه تبين له أن من عني به هذه العناية ، ونقله في هذه الأحوال ، وصرفه في هذه الأطوار لا يليق به أن يهمله ويتركه سدى ، لا يأمره ولا ينهاه ، ولا يعرفه حقوقه عليه ولا يُثيبه ولا يُعاقبه .

ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل ما يبصره وما لا يبصره دليلاً على التوحيد والنبوة والمعاد وأن القرآن كلامه .

فقد بان أن المضيع مغرور على التقديرين :

- تقدير تصديقه ويقينه .
- وتقدير تكذيبه وشكه .

فإن قلت : كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنَّة والنَّار ويتخلف العمل ؟ ، وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غداً إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد العقوبة ، أو يكرمه أتم كرامة ويبيت ساهيًا غافلاً ، لا يتذكر موقفه بين يدي الملك ، ولا يستعد له ولا يأخذ له أهبته ؟! .

قيل : هذا لعمر الله سؤال صحيح وارد على أكثر هذا الخلق فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء .

وهذا التخلف له عدة أسباب :

أهمها : ضعف العلم ، ونُقصان اليقين ، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها .

الاشتغال عن تحصيل ما عند الله بطلب الرزق

الناظر إلى العباد وتسابقهم لنيل الأرزاق وتحاسدهم عليها ، ينقدح في نفسه كأن هؤلاء خُلقوا لذلك المطلب الوحيد ؛ وهو الرزق ، فتجد الوالد ـ إلا من رحم الله منهم ـ يهتف كم حصلت على المال ؟، وعلى كم ستحصل؟ ، وماذا ستعطي منها ؟ ، وكذا كافة الأسرة في الغالب الأكثر .

فمن أجل ذلك أحببت أن أذكر هنا بعض الأدلة المؤكد على أن الرزق هو من قِبل المولى سبحانه وأنه في الأصل لا يقطع الطريق على السالكين إلى الله والطالبين ما عنده ، **فمن ذلك :**

[١] قوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)** ﴾ .

[الذاريات :٥٦ ـ٥٨] .

[٢] وقال تعالى : ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦)** ﴾ [هود : ٦] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره :

« أخبر الله تعالى أنه سيتكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض ، صغيرها وكبيرها ، بحريها وبريها ، وأنه يعلم مستقرها ومستودعها ، أي : يعلم أين منتهى سيرها في الأرض ، وأين تأوي إليه من وكرها وهو مستودعها . . .

وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك كقوله :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ [الأنعام : ٥٩] » .

[٣] وقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) ﴾ [العنكبوت : ٦٠] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره :

« ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ ﴾ أي : لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئًا لغد ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي : يقيض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها ، فيبعث إلى مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض ، والطير في الهواء والحيتان في الماء » .

[٤] وأخرج البخاري (٣٢٠٨) ، ومسلم (٢٦٤٣) عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « **إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات ، يُكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد** » .

[٥] وأخرج الحاكم في المستدرك (٤ / ٣٢٦) عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ : « **يقول الله تبارك وتعالى يا ابن آدم ، تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى وأملأ يدك رزقًا ، يا ابن آدم ، لا تباعد مني فأملأ قلبك فقرًا وأملأ يديك شُغلاً** » .

وصححه شيخنا في الصحيح المسند ، والعلامة الألباني في الصحيحة

(٣/ ٣٤٧) ، وله شاهد عند الترمذي ، وابن ماجة من حديث أبي هريرة ، وذكره الألباني في الصحيحة رقم (١٣٥٩) .

[٦] وما أخرجه أحمد (٥/ ١٨٣) وابن ماجة (٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت قال : قال رسول الله ﷺ : « **ومن كانت الدنيا همَّهُ ، فرَّقَ الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتبَ له ، ومن كانت الآخرة نيته ، جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة** » . صححه شيخنا في الصحيح المسند ، والعلامة الألباني في الصحيحة (٩٥٠) .

[٧] وما أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٩٠ و٢٤٦) من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « **لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت ، لأدركه رزقه كما يُدركه الموت** » . ذكره الشيخ الألباني في الصحيحة (٩٥٢) وقال : حديث حسن أقل المراتب .

[٨] وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته** » [1] ، وأن الله جعل الروح والفرح في الرضى واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط . [أخرجه الحاكم (٢/ ٤) وله شاهد من حديث جابر بن عبد الله ، أخرجه ابن حبان (٣٢٣٩، و٣٢٤١) وأخرجه من حديث أبي أمامة عند أبي نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٦ -٢٧) بهذه الشواهد صححه الشيخ الألباني لغيره ، كما في مشكاة المصابيح (٥٣٠٠) .

---

(١) **قال ابن القيم في « الجواب الكافي »** (ص٢٢٤) : وإنما كانت معصية الله سببًا لمحق بركة الرزق والأجل ، لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها « سلطانه عليهم » وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه ، فبركته ممحوقة » . أ . هـ .

ففي هذه الآيات النيرة ، والأحاديث القيمة ، ما يبين لكل عاقل أن ما اتهمك فيه المنكرون اليوم من طلب الدنيا باسم طلب الرزق لغفلة عظيمة ،كيف لا تكون غفلة ؟! ، وهم يذهبون أعمارهم في تحصيلها ، فتجده يخرج من بيته في الصباح فلا يعود إلا في الليل .

ولربما نودي للصلاة وارتفع أذان المؤذنين ، وهو مقبل على طلب دنياه غافل عما أوجب الله عليه ، ثم إنه ربما يسلى على نفسه بعدم ترك الصلاة ، ثم يقوم ويقرها في أي مكان سواء في المحل أو المدرسة أو المكتب أو البيت ، لأنها ليست مقصداً حقيقياً له ، بل مقصده بتحصيل زهرة الدنيا ولذتها ، وللأسف !!! فإن من كان هذا حاله فلا دنيا هو ينعم بها ولا آخره هو يفلح فيها ويسعد إلا أن يوفق للتوبة ويعاود أمر ربه .

فيا أخي المسلم احذر على نفسك غاية الحذر من أن تُذهب أيام عمرك في طلب العاجلة وتذر بذلك الآخرة ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا** (٢٧) ﴾ [الإنسان : ٢٧] ، فسابق إلى الله وعجل بطلب رضاه ، وسارع بالأعمال الصالحة لتظفر بما أعده الله لأهل التقى والصلاح ، جعلنا الله منهم .

المسابقة إلى الله

قال تعالى في كتابه الكريم :

[١] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾ [آل عمران : ١٣٠ - ١٣٦] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ تعالى في تفسيره :

« يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافًا مضاعفة ، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيرًا مضاعفًا ، وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى والآخرة ، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها ، فقال تعالى ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) ﴾ ، ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات ، فقال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) ﴾ ، أي كما أُعدت النار للكافرين ، وقد قيل إن معنى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ تنبيهًا على اتساع طولها كما قال في صفة فرش الجنَّة وبطائنها من استبرق ، أي فما ظنك بالظهائر ؟ .

وقيل : بل عرضها كطولها ، لأنها قبة تحت العرش والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله ، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح : « **وإذا سألتم الله الجنَّة فاسأوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنَّة وأوسط الجنَّة ، ومنه تفجر أنهار الجنة وسقفها عرش الرحمن** »(١) .

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنَّة فقال : ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً** ﴾ [البقرة : ٢٧٤] .

والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مراضيه ، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر ، وقوله تعالى : ﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ** ﴾ أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه ، فلم يعملوه ، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم » .

[٢] وقال تعالى : ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)** ﴾ .

[الحديد : ٢٠ – ٢١] .

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره :

« يقول تعالى موهنًا أمر الحياة الدنيا ومحقرًا لها : ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ** ﴾ أي : إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا ، كما قال تعالى : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ**

---

(١) البخاري (٢٧٩٠) .

وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾ [آل عمران : ١٤] .

ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة ، فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ [الشورى : ٢٨] .

وقوله تعالى : ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ أي : يعجب الزُّراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث ، وكما يعجب الزراع ذلك ، كذلك تعجب الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شيء عليها أميل الناس إليها .

﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ أي : يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرًا بعدما كان خضرًا نضرًا ، ثم يكون بعد ذلك كله حطامًا ، أي يصير يبسًا متحطمًا هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزًا شوهاء ، والإنسان يكون كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضًا طريًا لين الأعطاف بهي المنظر ، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه ، ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخًا كبيرًا ضعيف القوى ، قليل الحركة يعجزه الشيء اليسير كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الروم : ٥٤] ، ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة ، حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير فقال : ﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ : أي : وليست في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا ، وإما عذاب شديد وإما مغفرة من الله ورضوان .

وقوله تعالى ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أي : هي متاع فإن غارٌ لمن

ركن إليه فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يفتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة .

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، اقرؤا : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾** » [١] ، الحديث ثابت في الصحيح بدون هذه الزيادة .

وأخرج البخاري [٢] ،عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **الجنَّة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنَّار مثل ذلك** » .

ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان وإذا كان الأمر كذلك فلهذا حث الله تعالى على المبادرة إلى الخيرات من فعل الطاعات وترك المحرمات التي تكفر عنه الذنوب والزلات وتحصل له الثواب والدرجات ، فقال تعالى : ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)**﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

وقال ههنا : ﴿**سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾ أي : هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله ومَنِّه عليهم ، وإحسانه إليهم ، كما في الصحيح [٣] ، أن فقراء المهاجرين قالوا : يا رسول الله : ذهب أهل الدثور بالأجور وبالدرجات العُلى والنعيم المقيم ، قال : « **وما ذاك** » ؟ ، قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق ، قال : « **أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا صنع مثل ما صنعتم ، تسبحون**

(١) البخاري (٢٨٩٢) .
(٢) البخاري (٦٤٨٨) .
(٣) البخاري (٨٤٣) ، ومسلم (٥٩٥) عن أبي هريرة .

وتكبِّرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين » ، قال : فرجعوا فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ : « **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** » .

[٣] قال تعالى : ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [البقرة : ١٤٨] .

قال الإمام السعدي في تفسيره :

« أي : كل أهل دين وملة له وجهة يتوجه إليها في عبادته ، وليس الشأن في استقبال القبلة ، فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة والأحوال ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى جهة ، ولكن الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله والتقرب إليه وطلب الزلفى عنده ، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية ، وهو الذي إذا لم تنصف به النفوس حصلت له خسارة الدنيا والآخرة ، كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة على الحقيقة ، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع وهو الذي خلق الله له الخلق وأمرهم به .

والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات ، فإن الاستباق يتضمن فعلها وتكميلها وإيقاعها على أكمل الأحوال هو المباحة إليها ، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات فهو السابق في الآخرة إلى الجنَّات ، فالسابقون أعلى الخلق درجة ، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل ، من صلاة وصيام وزكوات وحج وعمرة وجهاد ونفع متعدٍ وقاصر .

ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير وينشطها ؛ ما رتب الله عليها من الثواب ، قال عزَّ وجلَّ : ﴿ **أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ ، فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته ، فيجازي كل عامل

بعمله ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ .

ويُستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل ، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة من الصيام والحج والعُمرة وإخراج الزكاة ، والإتيان بسُنن العبادات وآدابها ، فلله ما أجملها وأنفعها من آية .

[٤] وقال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ﴾ [الواقعة : ١٢] .

قال ابن القيم في « حادي الأرواح » (باب/٢٠) :

« السابقون في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون يوم القيامة إلى الجنَّات ، والسابقون إلى الإيمان هم السابقون إلى الجنان ، وهذا ما أظهر والله أعلم » .

[٥] وقال تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

قال السعدي في تفسيره :

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ أي : بادروا إليها وأكملوها ، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب ، من حقوق الله وحقوق عباده ، لا يصير فاعلها سابقًا لغيره مستوليًا على الأمر إلا بأمرين :

﴿ ١ ﴾ المبارة إليها .

﴿ ٢ ﴾ وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها ، والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به .

ويستدل بهذه الآية ، على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول وقتها ، وعلى أنه ينبغي أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزئ في الصلاة وغيرها من العبادات

من الأمور الواجبة ، بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات التي يقدر عليها لتتم وتكمل ويحصل بها السبق » .

[٦] عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مال عندي ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا ، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ : « **ما أبقيت لأهلك** » ، فقلت : مثله ، قال : وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال له رسول الله ﷺ : « **ما أبقيت لأهلك** ؟ » ، قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، قلت : لا أسابقك إلى شيء أبدًا . [أخرجه أبو داود] .

وقال شيخنا في « الجامع الصحيح » (٤ / ٢٦) ، هذا حديث حسن .

[٧] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة** »[أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) وصححه العلامة الألباني ـ رحمه الله ـ] .

سؤال الجنَّة

ينبغي للمسلم أن لا ينسى أن يسأل الله ويتضرع إليه أن يرزقه الجنَّة ، ويلح في الدعاء في ذلك على الله ، فإن ذلك ينبغي أن يكون منية كل مسلم .

■ فقد أخرج أبو يعلى في مسنده (٦١٩٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما استجار عبد من النَّار سبع مرات في يوم ، إلا قالت النَّار : يارب إن عبدك فلانًا قد استجارك مني فأجره ، ولا يسأل الله عبد الجنَّة في يوم سبع مرات إلا قالت الجنَّة : يارب إن عبدك فلانًا سألني ، فأدخله الجنَّة** » [١] . قال الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٨٠٦) : الحديث صحيح .

■ وأخرج الترمذي في جامعه (٢٥٧٢) : عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **من سأل الله الجنَّة ثلاث مرات قالت الجنَّة : اللهم أدخله الجنَّة ، ومن استجار من النار بالله ثلاثًا قالت النَّار : اللهم أجره من النَّار** » . وهو في « الصحيح المسند » لشيخنا ـ رحمه الله ـ وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٧٩) .

(١) قال العلامة الألباني في « الصحيحة » (جـ٦ / رقم١ / ص٢٣) ، لقد اعتاد بعض الناس في دمشق وغيرها التسبيع المذكور في هذا الحديث جهرًا ، وبصوت واحد عقب صلاة الفجر ، وذلك مما لا أعلم له أصلاً في السُنَّة المطهرة ، ولا يصلح مستنداً لهم هذا الحديث لأنه مطلق ليس مقيداً بصلاة الفجر أولاً ولا بالجماعة ، ولا يجوز تقييد ما أطلقه الشارع الحكيم ، كما لا يجوز إطلاق ما قيده ، إذ كل ذلك شرع يختص به العليم الحكيم ، فمن أراد العمل بهذا الحديث فليعمل به ، أي ساعة من ليل أو نهار ـ قبل الصلاة أو بعدها ، وذلك هو محض الاتباع من الإخلاص فيه رزقنا الله تبارك وتعالى إياه .

أما حديث إذا صليت الصبح فقل قبل أن تتكلم « اللهم أجرني من النار سبع مرات » الحديث ، فهو ضعيف كما تراه محققًا في « الصحيحة » (١٦٢٤) فلا تغتر بمن حسَّنه ، فإنها زلة عالم ولا بمن قبله فإنه لا علم عنده . أ . هـ .